ابن جوليا الأكبر

بقي كاراكلا في منطقة نهر الراين طوال عام 213 منشغلاً بالعمليات الحربية ضد القبائل الجرمانية فيما وراء الحدود، وقد استطاع كسر حدة مقاومتهم في معركة جرت في نهاية الصيف، وقد أتم عمله بتهدئة القبائل بدفع مبالغ كبيرة من المال لزعمائهم. وبهذا مد نفوذ الإمبراطورية في داخل البلاد حتى نهر الألب وكان من عادة الرومان استعمال القوة والرشوة معاً لإحلال السلم في حدود الإمبراطورية وكانت العملة الذهبية التي وزعت هذه المرة ذات تأثير خاص، فقد كان ذهباً خالصاً يختلف عن الذهب الموزع سابقاً والذي كان حسب قول ديو عبارة عن نحاس مطلي بالذهب.

وكان نجاح المفاوضات منوطاً بجهوده الخاصة، فقد كان صريحاً وبسيطاً في معاملته لهم وتمتع بحبهم ومدحهم وقد ابتهج الجرمان عندما أتى الإمبراطور للتفاوض معهم وهو يرتدي ملابس جرمانية مع شعر مستعار أشقر طويل، وحالما نقلت هذه القصة إلى القرى النائية حتى أصبحت شعبية الإمبراطور أسطورة. لذلك دامت المعاهدة التي عقدها معهم مدة عشرين عاماً.

كان الجهد الذي بذله الإمبراطور في تلك الحملة يتفاقم مع تلك الأعمال التي كان يقوم بها شخصياً، والتي كان يفرضها على نفسه، مما أثر في صحته الضعيفة وعلى الرغم من زيارته إله الشفاء المحلي هناك ولكن دون فائدة. واضطر للعودة إلى روما للمعالجة الطبية وقد عزى نفسه بما أحرزه من الانتصارات التي توجَّها بإنشاء بعض الأبنية العامة التي زينت عهد حكمه، وهذه تشمل أبنية لا تزال آثارها ماثلة حتى الآن والتي لا تزال تحمل اسمه مثل حمامات كاراكلا التي بدأ بناؤها في هذا التاريخ ولكنها لم تتم إلا بعد وفاته.

تحسنت صحته أثناء الشتاء وما إن حلَّ الربيع حتى بدأ في استعادة نشاطه وشوقه للقيام بحملات حربية جديدة. وسنحت له الفرصة بورود أخبار عن الحوادث في فارس. فقد توفي الملك فولوجاسيس الرابع Vologases IV وتحارب ولداه بعضهما مع بعض طلباً للانفراد بالعرش والحكم، وأعلن الإمبراطور أن الحرب بين الأخوين مفيد للإمبراطورية الرومانية وأنه حظ كبير لها، أما بالنسبة إليه فهو فرصة لبرمجة أعماله وتعديلها بحيث تصبح مشابهة لبطله المحبوب الاسكندر الكبير.

وقد أتت المناسبة لتدخل الإمبراطور عندما عمد أحد الأخوة الساسانيين إلى إلجاء أحد المتمردين الأرمن وهو تيريداتس Tiridates أحد المطالبين بعرش أرمينيا التي تقع بين الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية، وهي منطقة حساسة بالنسبة لنفوذ كلا الطرفين.

كان الساسانيون يَدَّعون السيادة على أرمينيا، ولكنَّ الرومان كانوا ينظرون بحذر لحماية مصالحهم ولما كان ملك أرمينيا الحاكم في ذلك الوقت على وفاق مع روما، لذلك فقد كانت روما تشجب وترفض كل تهديد لسلطته. لذلك اعتبرت روما التجاء المتمرد تيريداتس Tiridates عملاً من الأعمال العدائية. وعمدت الدعاية الرومانية إلى الهزء من تيريداتس هذا وكان له مساعد يدعى أنطونيوس وهو فيلسوف يتبع الفلسفة الكلبية وهو أحد موظفي سبتموس سيفيروس في الأزمنة السابقة وكان هذا يضع نفسه مثلاً للجنود في تعليمهم الصبر والجلد وذلك بالتدحرج عارياً على الثلج على جبال اسكتلنده، وكان الجميع يتذكرون الحقائق التي كان يفاخر بها ويضحكون منها ولقد زاد الهزء الذي أثاره هذا الرجل عندما هجر الجيش الروماني ليكتسب الشهرة في خدمة العدو.

دعا كاراكلا الملك الأرمني إلى روما للتباحث معه حول المتمرد المطالب بالعرض. وصل الملك كضيف ولكنه اعتبر رهينة وأُبقي بكل احترام وتبجيل في ورما ولم يُسمح له بمغادرتها. ومع أنه كان حليفاً، إلا أن الرومان لم يكونوا مستعدين للمخاطرة. فبقاؤه سالماً في روما يمنعه من إجراء أي مفاوضات مع جهات أخرى أو أي تحول إلى معسكر آخر. وفي أثناء ذلك تقرب الرومان من أرطبان Artabanus أحد الأخوين المتقاتلين الساسانيين واعترف به ملك الملوك الساساني وأكدوا له عطف الرومان عليه في نزاعه مع أخيه فولوجاسيس Vologases وكان التحالف مع هذا الملك منوطاً بالظروف، ولكن كاراكلا كانت له أسبابه لاختيار التحالف، معه فقد كان مركز جيوش هذا الملك في اكسيفون Ctesiohon القريبة من دجلة ومن الحدود الرومانية ولهذا كان من الواجب التحسب والخوف منه باعتباره عدواً. أما أخوه فولوجاسيس فكانت جيوشه في ميديا Media جنوب بحر الخزر.

بدأ كاراكلا بالاستعداد لحملة جديدة رائعة إلى الشرق تشبهاً بحملة الاسكندر الكبير.

أضيفت عناصر جديدة للجيش لتقويته، وأرسلت فرق من المهندسين لبناء الحصون على الطريق الطويلة لاستراحة الجنود عبر الصحراء. ولم يشأ كاراكلا أن يجلس ساكناً في هذه الأثناء حتى انتهاء العمل، بل انطلق إلى الدانوب لمعاينة وتقوية الحصون. وهنالك نقوش كثيرة تشير إلى تنظيم الحامية العسكرية في داسيا.

بعد ذلك اتجه جنوباً إلى البلقان ثم اتجه إلى مكدونيا وهي موطن الاسكندر الكبير ولبس الملابس المكدونية، وهي عبارة عن قبعة ذات إطار عريض وحذاء طويل يغطي بطة الرجل وأدخل بعض الشباب المكدونيين وسلم لهم أسلحة من

النوع الذي كان يحمله جنود الاسكندر قبل خمسمئة عام وسماهم كتائب الاسكندر، وقد اكتسب شعبية لدى رجال المنطقة رغم امتعاض السياسيين الرومان من هذه الأعمال، وسماه رجال المنطقة بالبطل الأسطوري. وكان تمتعه بهذه الأعمال الطفولية سبباً في زيادة حبه من قبل رعاياه البسطاء.

وحالما وصل البحر أعرب عن شوقه للاقتراب من موقع طروادة وأداء واجبات الاحترام لقبر البطل آخيل وهو بطل آخر كان يعتبره مشابهاً له، ولكن عودة المرض الذي أصابه وهو على نهر الراين أجبره على تغيير مسيرته فاتجه إلى الجنوب إلى ميناء قريب حيث معبد الإله اسكولابيوس إله الشفاء، وحدثت عاصفة كادت تغرق سفينته فنقل إلى قارب ثم إلى قارب آخر، حتى وصل إلى ميناء بيرجاموم Pergamum وهو على بعد 15 ميلاً في أعلى النهر. وصل معبد إله الشفاء بحالة يرثى لها وكان بحاجة ماسة إلى الشفاء أكثر من أي وقت آخر، ومع ذلك ألف ترنيمة شكر للإله الذي عمل على شفائه من بعيد.

لا يعرف الكثير عن تشخيص مرضه إلا أن فقدانه رجولته وقوته الجنسية كان أحد نتائج هذا المرض، فقد فشل إله الشفاء في تخليصه من مرضه كما كاد يفشل في نجاته من الغرق. وكان الروتين التقليدي للشفاء في المعبد أن يقضي المريض ليلتين متتاليتين في مهجع مخصص لهذه الغاية حتى يظهر الإله في الحلم ويكشف ما يجب عمله لإعادة الصحة. وهناك كتيب يحتوي تفاصيل عمليات العلاج كتبه أحد المتأدبين قبل سبعين عاماً من هذا التاريخ. كانت الوصفات والعلاج المتبع كافياً لقتل المريض بدلاً من شفائه ومثل غمسه في الماء البارد أو المشي حافي القدمين في أعماق الشتاء لمريض يقاسي من الحمى والنزلة الصدرية، وحتى غالينوس الذي كان موقفه بالنسبة للطب مؤسساً على دراسة التشريح، إلا أنه يتكلم بكل ثقة وموافقة واستحسان لمفاهيم الآلهة، ويقول اريستايدس Aristides إنه دخل إلى المعبد مريضاً وخرج وقد شفي وتعافى.

والحقيقة أن جو المعبد كان يوحي بالثقة والتخلص من الوساوس النفسية. وكان الإله يتكلم بلغة الأحلام والرموز التي يفسرها الكهنة وكانت النتيجة الشفاء لأولئك المرضى الذين كانوا يظهرون التعاون، ولكن الإله لم يستطع التغلب على مقاومة المخاوف الباطنة. ففي وسط الظلام وبينما كان كاراكلا نائماً في مهجعه لم يزره إله الشفاء كما كان منتظراً بل زارته روح أخيه جيتا التي أتت إليه لِتَخِزَ ضميره. ورغم أمره للكهنة بتقديم الذبائح والقرابين لم تذهب روح جيتا بل ظلت تعاوده وتؤلمه.

ومع أن إله الشفاء خيب آمال كاراكلا، إلا أن صحته تحسنت قليلاً فقام بزيارة إلى ايليوم Ilium وهي مدينة بنيت على آثار طروادة القديمة، وقد رافقته والدته وكثير من أصدقائها المخلصين إلى تلك المدينة. فقد كانت أثناء أيامها الأخيرة القليلة منذ رجوعها من بريطانيا تعيش في روما مهتمة بشؤون الدولة التي تركها ابنها بين يديها. وكانت توفر الوقت للسفر معه كما كانت تفعل مع أبيه، إلا أن هذا العمل لم يكن ليرضيها إذ كانت تفضل الابتعاد عن قاتل ولدها الحبيب

جيتا. ولكن كانت هذه المناسبة استثناءً للقاعدة التي اتبعتها، فالحملة إلى الشرق لم تكن مغامرة عادية بل كانت تحقيق حلم كان يدغدغ خيالها لتتبع فتوحات الاسكندر في الشرق. كانت فتوحات الاسكندر تحتفظ بذكريات أسطورية خيالية في نفوس أهالي تلك البلدان التي خضعت له، ولم تكن سوريا لتخرج عن هذه القاعدة. زد عن ذلك أنه كان لديها الدافع والحافز الذي يغريها باللحاق بالجيش الذاهب إلى آسيا الصغرى مع رجال بلاطها، لأنها كنت تشعر بالارتياح التام وهي في الولايات الشرقية الأمر الذي لا يحدث لها وهي في إيطاليا.

ولما وصلت إلى الشرق بقيت هناك ولم ترجع إلى روما طوال حياتها الباقية. ويصف فيلوستراتوس شعوره أن الأرض قد اهتزت وهو في مدينة ايليوم مع الإمبراطور ومع جوليا وخرج شبح آخيل الذي شكا أن الناس قد أهملت عبادته ولم تعد ربات الموسيقى تغني. عوض كاراكلا عن إهماله الماضي نحوه بما أقامه من حفلات رائعة في تلك الأماكن المقدسة، وحدث أن مات أحد عبيده المحررين في ايليوم وكان أمين سره الخاص؛ فقاموا بحرق جثته بعمل كومة من الحطب وبمراسم كالتي وصفت في الإلياذة عندما مات صديق آخيل وهو باتروكلوس Patroclus، ولكي يحاكي تلك المراسيم والطقوس بالضبط رمى كاراكلا خصلة من شعره في اللهب، وكان هذا العمل سبباً في تبعثر شعره المستعار في الهواء بعد أن نزع منه تلك الخصلة مما أثار الهزء والاستنكار.

تذكرنا هذه النشاطات بالرحلات التي كان يقوم بها سبتموس سيفيروس لرؤية المناظر في الفترات ما بين حروبه وما بين الحوادث السياسية المهمة عندما كان يسافر بصحبة جوليا. وكان من أغراض كاراكلا تحسين علاقاته مع أمه لاسيما إذا جعلها تستمتع بهذه الرحلة، ولما كان يعلم مدى اهتمام أمه بابوللونيوس وهو الحكيم الذي تخيله فيلوستراتوس، لذلك عمل على بناء قبر لابوللونيوس في تيانا Tyana مسقط رأسه. ومهما كان شعورهما تجاه بعضهما البعض إلا أنهما كانا حريصين على إبقاء مظاهر الانسجام بينهما عندما قرار البقاء في نيكوميديا على بحر مرمرة في ذلك الشتاء، كان الإمبراطور لا يرغب في اجتراح أي إساءة لأمه نظراً لأنه كان يعتمد عليها في حكم الإمبراطورية، وتأمين ولائها له أثناء غيابه. أما هي فكانت تنظر إليه كواسطة لحفظ شأن الأسرة.

لقد كان وصول البلاط الإمبراطوري إلى نيكوميديا يؤلف عبئاً ثقيلاً على المواطنين في تلك المدينة. ويصف ديو المتاعب التي واجهها المواطنون في هذا السبيل والتي لا تنحصر في تقديم ألوان الطعام والشراب فحسب بل في بناء المسارح وأماكن التسلية واللهو التي كانت تقام بشكل خاص لهم وتهدم عند مغادرتهم. ولما كانت مخصصات الحكومة هناك لا تكفي لتغطية تلك النفقات وقع العبء على كواهل الرجال الأغنياء الذين كانوا مجبرين على الإسهام في تلك النفقات من مواردهم الخاصة.

لم يكن سلوك الإمبراطور كافياً لتعويض المواطنين عن الجهد والمتاعب المادية والمعنوية فقد كان يفضل التحدث مع الجنود على الحديث مع وجهاء المدينة. وكان من عادته عندما يدعى إلى إحدى الولائم أن يطلب حضور مرافقيه من العساكر الذين كانوا يلتهمون الطعام دون أن يتعرفوا على رب البيت المضيف مع أنهم كانوا يأكلون طعامه الشهي المكلف.

وفي ربيع عام 215 بدأ بهجومه على (فولفوسيس) Vologuceses الذي كان قد وصل إلى أرمينيا لدعم المطالب بالعرش تيرتداتس Tiridates. تقدم الجيش الروماني لمقاومته باسم الملك المنافس الذي بقي كرهينة في روما وبعكس عادته لم يستلم كاراكلا قيادة الجيش شخصياً في هذه الحملة. فقد وصلته أخبار خطيرة من الإسكندرية عن قيام حالة من الشغب والتمرد، لذلك اضطر الإمبراطور إلى الذهاب إلى مصر وترك الحملة تحت قيادة قائد يدعى ثيوكريطوس Thiocritus وكان هذا عبداً سابقاً ومعلم الرقص للإمبراطور في طفولته. كانت ترقيته ليصبح قائداً عاماً للحملة قد أثار حفيظة الجنود والقواد الآخرين الذين اعتقدوا أن مؤهلات هذا القائد لا تخوله استلام مثل ذلك المركز، ويتهم ديو هذا القائد بسرقة أرزاق الجنود والاعتماد على حظوته لدى الإمبراطور للتخلص من أي شخص يقف في وجه مطامعه. وقد كانت سياسة الإمبراطور هي رفع وظائف الرجال ذوي المراتب الدنيا حتى يظل اعتمادهم عليه سبباً في ولائهم له. وقد أفصح عن رأيه في الطبقات العليا بكتاب أرسله إلى مجلس الشيوخ يقول فيه: «إنني أعلم أن سلوكي يزعجك ولكن هذا هو السبب الذي يجعلني أحتفظ بقوتي وأسلحتي وجنودي حتى لا أهم بما تقولونه».

ولكن نظراً لتلك الأهمية التي كان يعلقها على انتصاره في الشرق فلا يمكن أن يضع جيشه تحت قيادة غير ذات كفاءة. فالأخطاء التي كانت تنسب إلى ثيوكريطوس Theocretos لم تكن ذات طابع عسكري. ولهذا ومع أنه مني بخسارة كبيرة في بداية الحرب، إلا أنه عاد ليبرز كفاءته ومقدرته في النهاية.

وفي أثناء ذلك كانت الأخبار الواردة من مصر غير مطمئنة. فقد بدأت المتاعب عندما نقلت الفرقة العسكرية المتواجدة في مصر إلى منطقة الراين لمواجهة بعض المتاعب التي سببها الجرمان، وكان نجاح الخطط الإصلاحية التي وضعها سبتموس سيفيروس سبباً في استتباب الأمن فأصبح بالإمكان الاستغناء عن القوة العسكرية. ولكن سرعان ما بدأت التركات المريبة في الظهور وبدأ أعوان نيجر يطلون برؤوسهم لإشعال نار الفتنة لا سيما وأن الدولة كانت خالية من القوى المسلحة للقضاء عليهم.

وهكذا بدأ الامتعاض وعدم الرضا يتحول إلى تمرد على يد بعض المواطنين الأغنياء في الإسكندرية، وكان هؤلاء مقاولين لنصب التماثيل للإمبراطور كاراكلا التي تشبه صورة الاسكندر المكدوني، ولكنهم اشتكوا أن تعويضاتهم لم تدفع لهم أو أنها دفعت بأموال منخفضة القيمة. ولم يجدوا أي

صعوبة في تجنيد بعض الأتباع من مروجي الفتن والعنف من الرعاع والمواطنين المتجمهرين في المدينة الذين هاجروا من الريف تهرباً من دفع الضرائب المفروضة على الفلاحين في القرى. وقد اتخذ الشغب طابعاً في تدنيس المقدسات وحرق المباني والمقتنيات الخاصة وبدا الحاكم الروماني هيراكليتوس عاجزاً عن عمل أي شيء لإعادة النظام، وقد قيل إنه كان مشتركاً في المؤامرة، فأحيل بعدها للمحاكمة، كانت هذه الحوادث كافية لإلقاء الذعر في قلب الإمبراطور فضلاً عن النكات البارعة التي وصلت إليه للاستهزاء بشخصه أيضاً، فقد كان أهالي الإسكندرية بارعين في إطلاق النكات اللاذعة. ونشروا صوراً كاريكاتورية له بصفة شخص قصير القامة نحيف الجسم وبشع الوجه. وبدأوا يؤلفون الأغاني عن والدته جوليا التي شبهوها بجوكاستا Jocasta التي تذكر الأساطير اليونانية أنها كانت والدة أوديب وزوجته بالوقت نفسه، وأنها ولدت ولدين سبب النزاع المستحكم بينهما خراب طيبة اليونانية. كان البلاط الإمبراطوري توجه جنوباً إلى أنطاكية التي كانت قد نسيت العار الذي أحدثه سبتموس سيفيروس لها بسبب مساعدتها لنيجر، واستعادت قزتها زنشاطها. وقد جعلتها جوليا مركز إقامتها ونشاطها بقية حياتها، وكانت تستلم التقارير من جميع أنحاء الإمبراطورية وتستقبل المبعوثين، وتقضي أوقات فراغها مع أصدقائها في بحث الفلسفة والأدب بجانب جداول المياه المنسابة في الوادي المشجر الجميل هناك. وكانت أنطاكية تشتهر بمباهجها الروحية والجسدية.

كانت السعادة تغمرها في أنطاكية ولكن لم يكن لديها سوى الوقت القليل للتمتع بتلك السعادة. شعرت جوليا بآلام شخصت بأنها سرطان في الصدر، ولم يستطع أطباؤها عمل شيء لمساعدتها للشفاء، ولكنها لم تسمح لمرضها وضعفها أن يحول دون اهتمامها بنشاطها العقلي وتصريف شؤون الدولة. وقد ترك لها ابنها حرية التصرف والسلطة المطلقة قبل سفره إلى مصر لإخماد الفتنة هناك.

في مصر ادعى أنه قد أتى لتقديم واجبات الاحترام لقبر الاسكندر الكبير وللاشتراك في أعياد الإله سيرابيس Serapis. وقد صدقه المصريون واحتفوا به بعد أن ملّوا الفتن واشتاقوا لرؤية شخص يضع حداً لها، وهكذا ألقيت عليه الزهور لدى مروره من أبواب الإسكندرية، وملأت الروائح العطرية الشوارع وصدحت الموسيقى المقدسة. وعند حلول الليل أحاطت به وبموكبه المشاعل وأوصلته إلى هيكل الإله سيرابيس، حيث قدم الضحايا والقرابين. وبعدها توجه إلى قبر الاسكندر الكبير ووضع عليه بكل احترام عباءته الإمبراطورية وخواتمه وجواهره التي كان يلبسها. دام الاحتفال حتى الفجر وارتاح المواطنون لرؤية المياه تعود إلى مجاريها. وقد بدا الإمبراطور في أحسن حال ومع أنه كان يصطحب قوة كبيرة إلا أن تلك القوة لم تكن سوى إشارة لهيبته على صعيد حفظ كرامة الإمبراطورية.

نزل في هيكل الإله سيرابيس كما لو أنه أراد الإعلان أن الإله أصبح في جانبه ويرعاه. وفي الصباح أعلن عن دعوته للشباب الأقوياء الأصحاء للتجمع في الساحة حتى يختار منهم كتيبة تسمى كتيبة الاسكندر الكبير. وقد لبى الجميع تلك الدعوة وقد وافاه شباب الأسر النبيلة للانخراط في تلك الفرقة التي يشرفهم وجودها في بلدهم، وحضر الآباء الفخورون بأبنائهم ليروا العرض العسكري للأبناء الذين كانوا يرتدون أفخر الملابس العسكرية ويطوفون في الشوارع، وكان الجميع يلهجون بألسنة الشكر والمديح للإمبراطور. ولكن الإمبراطور بدأ في تنفيذ خطته التي أتى من أجلها وهي تقليد لخطة والده التي اتبعها مع الحرس البريتوري في روما ولكن بشكل أشد غيظاً. إذ بعد ذلك العرض العسكري، انسحب الإمبراطور تاركاً جنوده يعملون سيوفهم قتلاً في أولئك الشباب الذين اختارهم ليكونوا الكتيبة الجديدة، وكذلك قتل آباءهم وكل من وجد في الشوارع للاحتفال بمقدمه، وهكذا حرمت الإسكندرية من زهرة شبابها في بضع دقائق وحرمت من خيرة زعمائها ومواطنيها.

وحالما انتشرت الأخبار في المدينة، ساد الوجوم والحزن وبذلت محاولات للتعبير عن السخط بتنظيم عصيان مسلح وشغب منظم ولكن وجود الجنود في المناطق الإستراتيجية في المدينة على استعداد لإخماد أي حركة أبطل تلك المحاولات وتبع ذلك مذبحة مريعة. فقد انتشر الجنود المتعطشون للدماء في كل مكان وذبحوا كل من رأوه دون تمييز في المرتبة أو الجنس أو العمر. وحالما تكومت أكوام الجثث في الشوارع حفرت الحفر ورميت فيها تلك الجثث، ولم يقتصر الدفن على الموتى فقط بل على أشخاص كانوا لا يزالون أحياء، وفي إحدى الحوادث حاول أحد الضحايا الذي كان لا يزال به رمق من الحياة والذي كانوا يجرونه لدفنه حياً مع رفاقه، حاول هذا التشبث والإمساك بآسره بشدة فسحبه معه إلى الحفرة فسقطاً معاً كدبورين سقطا في قارورة من المربى ودفن كلاهما وهما أحياء. ولإتمام انتصاره ولمنع مجرد التفكير في العصيان، بنى كاراكلا سوراً عبر المدينة قطعها إلى نصفين وجعل على السور حرساً يتغيرون في فترات لمنع الناس من المرور ذهاباً وإياباً وهذا الحاجز يشبه الحاجز الذي أقامه الأميركيون في برلين في الوقت الحاضر. وبالإضافة إلى ذلك فقد طرد جميع الغرباء عدا التجار وأقفل أمكنة اللهو ومنع التجمعات العامة. وكانت الإسكندرية ثاني مدينة في الإمبراطورية يقرب عدد سكانها من سكان روما، وقد أثار تخريبها موجة من الذعر في المجتمعات الضعيفة في الإمبراطورية. وقد أذيع بلاغ رسمي في الإمبراطورية أن الجنود تجاوزوا حدودهم وأصبح من المستحيل ردهم وإطاعتهم للأوامر. ولكن لم يستطع أحد أن ينسى وحشية كاراكلا الذي احتفل بانتصاره في معبد سيرابيس أيضاً حيث أهدى سيفاً للإله وقال إنه السيف الذي قتل به أخوه جيتا. وقد أظهرت هذه الإشارة غريزته الانتقامية الهستيرية وحبه لمجابهة الرأي العام.

تفرغ الإمبراطور الآن لمعالجة شؤون الشرق وفارس والحرب فيها. وقد ترك قائده ثيوكريطوس لمعالجة قضية فولوجاسيس في أرمينيا وتوجه لمقابلة أخيه أرطبان Artabanus ولشدة دهشة أولئك الذين كانوا يظنون أنه لن يملأ الفراغ الذي حدث بموت زوجته بلوتيلا Plautilloe وأنه قد عزف نهائياً عن الزواج نراه قد أرسل رسلاً إلى ارطبان ليطلب منه يد إحدى بناته، وكان في ذلك يحذو حذو الاسكندر المكدوني الذي تزوج أميرة فارسية وهي روكسانا Roxana ولكن أرطبان لم يرض التقرب للرومان وشاطرته في هذا الرأي بناته اللواتي علمن عن نقاط الضعف في خطيب المستقبل. وقد أجاب كاراكلا عن ذلك الرفض أنه يفضل اتخاذ زوجة له من بنات الولايات الأخرى وليس من فارس حيث تختلف عنه البنات في اللغة والعادات والطعام واللباس.

وفي هذه المرحلة من المفاوضات أتت الأخبار من أرمينيا أن القائد ثيوكريطوس قد أحرز النجاح هناك لحملته وأن فولوجاسيس وافق على الانسحاب من المنطقة بعد أن سلم المدعي بالعرض وهو تيريداتس Tiridates للرومان، وكذلك سلم معه الفيلسوف أنطونيوس. ونتج عن تلك الحالة الجديدة خوف من تفوق أخيه عليه ولذلك وافق على طلب كاراكلا الزواج من إحدى بناته. ولكن كاراكلا لم يكن راغباً في كشف عجزه الجنسي لأميرة ساسانية، وكان يروق له أن يبقى الأخوان متنافسين حتى تحين الفرصة للقضاء عليهما معاً ويصبح هو الاسكندر الجديد الذي فتح الشرق.

ومع ذلك كان حريصاً على عدم تعريض أرطبان للإهانة وهو الذي كان في غاية الشوق لإتمام صفقة الزواج وللموافقة على الشروط التي يطلبها الرومان. وهكذا قرر كاراكلا أخير الذهاب بنفسه لطلب يد عروسه بعد أن لم يعد هنالك من عذر للتأخير. فتقدم بحراسة جيش كبير حيث حيته الجماهير باحترام في المدن والقرى، وكان الجميع في غاية السرور لعزم الإمبراطور على ربط البلدين بأواصر المصاهرة ولوضع نهاية لتلك السلسلة الطويلة من الحروب التي أنهكت القطرين في الماضي.

انتظر ارطبان ضيفه في أرابيلا Arabela حول التلال فيما رواء نهر دجلة، وحالما اقترب الجنود الرومان ركب لمقابلة صهره الجديد ومعانقته وقد تبعته الجماهير الآتية من المدينة وكلهم يرتدون أفضل ملابسهم ويضعون أكاليل الزهور البرية على رؤوسهم، وقد ترجل كلا الراكبين وأفلتوا خيولهم لترعى في السهل وتركوا أسلحتهم على العشب، امتلأ الحقل بالناس الذين كانوا يشربون ويمرحون ويتجمعون لرؤية عريس المستقبل. فسكبت الخمور ورقص الرجال والفتيات على أنغام النايات والطبول.

انتظر كاراكلا حتى أخذت الخمر مأخذها في الشاربين وعندها أعطى الإشارة للجنود الذين سلوا سيوفهم فجأة، فما كان من البارثين الذين أُخذوا على حين غرة إلا أن هربوا بعد أن حل بهم الذعر، وقد قتل الكثيرون الذين أعاقتهم ملابس الحفلات عن الجري بسرعة لامتطاء خيولهم. واستطاع أرطبان الهرب

بصعوبة والنجاة بحياته فقد وجد خَدَمُهُ حصاناً أركبوه إياه فرفع ابنته وأركبها أمامه ثم أسرع في الهرب.

بعد أن أصبحت مدينة أرابيلا دون دفاع، نهبها الرومان وأحرقوها ونبشوا قبول الملوك القدماء وبعثروا عظامهم وقد قيل إن الاسكندر فعل العمل نفسه عند تغلبه على داريوس، ولذلك لم يجد كاراكلا غضاضة في إعادة التاريخ نفسه ولكن مع اختلاف الظروف واختلاف وجهات نظر العالم المعاصر (لكاراكلا) بالنسبة لتلك الأعمال.

هذا وقد كان قرار كاراكلا ببدء الخصام مع أرطبان، ارتياحه لإجراء مفاوضات مع أخيه ومنافسه فولوجاسيس الذي أقنع كاراكلا بأن الوقت قد حان لتحالفهما معاً. ولكن حالما علم فولوجاسيس هذا بما عمل الجنود الرومان من نبش مقبرة آبائه وأجداده وتدنيس عظامهم، استبد به الغيظ وشعر بالاهانة، لدرجة أنه قرر الرجوع إلى مصادقة أخيه واتفقا على إجراء جبهة موحدة ضد الرومان. وبنى كلاهما قواهما وعززاها للانتقام من الرومان، وعندما شعر كاراكلا بالتهديد الذي نجم عن اتحاد الأخوين لم يجرؤ على التوغل في الأراضي الفارسية، واكتفى بالنهب والسلب ثم عاد إلى ما بين النهرين للاستعداد لغزوة على مقياس أوسع، وعند وصوله إلى ايديسا أرسل رسالة إلى مجلس الشيوخ ينبئ بانتصاراته ولكنهم لم يصدقوه.

كانت ايديسا تشتهر بينبوع الماء المقدس لدى الحورية السورية اتارجاتيس Atargatis وكانت هذه المدينة مركز نشاط المسيحيين الذين كان لهم النفوذ الكبير لدى الدوائر الحاكمة في المدينة. عامل كاراكلا المسيحيين بالإحسان والمودة كما كانت أمه تفعل. واختار المدينة لتكون مركز إقامته في الشتاء واستقر هناك في خريف عام 216م. وكانت العادة أن يصطحب شرذمة من الحرس البريتوري ومعها عريفها. فقد أخذ سبتموس سيفيروس بابنيان معه عند زيارته بريطانيا زهكذا فعل كاراكلا، ولكنه أخذ معه العريفين اللذين عينهما بعد موت بابنيان وهما ادفتوس Adventus وماكرينوس Macrinus إلى أديسيا، وكان الأول جندياً قديماً ارتفع من طبقات دنيا وكان وضعه العسكري لا غبار عليه ولكنه الآن أصبح متقدماً في السن مع ضعف في البصر وهكذا طغا عليه زميله الأصغر سناً وهو ماكرينوس Macrinus.

ولكن حدث تنافس بينهما: فالأول كان جندياً خشناً أما الثاني فكان محامياً مهذباً مصقولاً، وقد أتى من أسرة من الطبقة الوسطى في موريتانيا وهي ولاية من ولايات شمال أفريقية، حيث لفتت مواهبه انتباه بلوتينوس الإفريقي أيضاً وهو الوزير القوي النفوذ في أول عهد سبتموس، وقد حدث أن سمعه بلوتينوس يتناقش في الشؤون القانونية فأعجب به وعينه في الدائرة القانونية للخزينة الإمبراطورية. ولكن عندما أفل نجم بلوتينوس وسقط، أصبح ماكرينوس في وضع لا يحسد عليه لولا أن دعمه سيلو Cilo وهو سياسي كهل أوكل إليه سبتموس أمر وصاية أولاده حتى بلغوا سن الرشد والذي كان لا يزال يتمتع ببعض النفوذ.

وضع سيلو ماكرينوس تحت حمايته ورعايته بعد أن سُرَّ بأخلاقه وكفاءته وعينه مراقباً لحركة المرور وصيانة الطريق الفلامينية، وهي طريق مزدحمة تصل بين روما وريميني Rimini عبر جبال الابنين.

هدد ماكرينوس بضياع وظيفته بعد موت سبتموس، فقد بدا أن حاميه الجديد غير قادر على حمايته إذ إنه أثناء حملة التطهير التي تلت موت (جيتا) بدأ بعض الانتهازيين بالعمل لنيل أغراضهم الخاصة باسم المصلحة العامة، فقد هوجم بيت (سيلو) وطلب من شرذمة من الجنود نهب بيته واعتقاله. وكان سيلو على وشك الاستحمام وهو نصف عار. فجره المتطفلون هؤلاء كما هو في الشارع وأخذوه إلى القصر لأجل المحاكمة، وكان لا يشك بأن سوف يُعْدَمُ بسبب الفوضى الضاربة أطنابها بعد قتل الإمبراطور جيتا.

ولكن لم تكن النتيجة كما توقع فقد كان لسيلو شعبية في روما إذ إن العنف الذي عومل به سبب استنكار الشعب، فخرج كاراكلا ليرى ما الخبر وسواء تأثر بالجمهور أم أنه أشفق على سيلو، فالنتيجة أن الإمبراطور شق طريقه بين الجمهور وغطى سيلو بعباءته لستر عريه. صرخ الإمبراطور قائلاً: «كيف تجاسرتم على إهانته إنه الوصي علي، إنه أبي»!

وكان من عادة كاراكلا أنه إذا اتخذ شكل المنقذ ونصير المظلومين فإنه يمثل ذلك الدور بمهارة وكما يجب، وذلك لنيل الاستحسان والتصفيق المطلوبين. وقد أعدم الإمبراطور الجنود الذين هاجموا بيت سيلو وعمل كل ما في وسعه للتعويض على سيلو وإرضائه وزاد تأييد الإمبراطور له أكثر من السابق وأصبح كل من يعتمد عليه من المحظوظين. ومن جملة هؤلاء كان ماكرينوس الذي رقي فجأة إلى عريف الحرس البريتوري.

لقد كان ماكرينوس خادماً أميناً لكاراكلا فأنجز أعماله بجد ولباقة ولكن كان بينهما اختلاف في أسلوب الحياة، فقد كان ماكرينوس يميل إلى أطايب الطعام والشراب ولا يشترك مع الجنود في طعامهم ويتوق إلى الترف، بينما كان الإمبراطور بالعكس، يتقرب إلى الجنود في مأكله وملبسه وكان يهزأ من ماكرينوس لعاداته البعيدة عن عادات العساكر ويتهمه بالتخنث، ومع ذلك فقد أبقاه مسؤولاً عن قضايا الحرس البريتوري وهو يعلم كم ستسوء الحال لو ظلوا تحت إشراف ادفنوس Adventus.

كان ماكرينوس حزيناً وغاضباً من ذلك الاحتقان الذي بدأ على الإمبراطور بالنسبة إليه فقد كان رغم دماثة أخلاقه طموحاً. الأمر الذي سبب إيقاع الشكوك في نفس الإمبراطور ضده. وقد أتته رسالة خاصة من أحد أصدقائه في روما ينذره فيها باشتراكه بمؤامرة ضده وصدف أن كان الإمبراطور في ايديسا على وشك الذهاب إلى الصيد فسلم الرسائل التي منها تلك الرسالة إلى ماكرينوس لقراءتها وإخباره إذا كان هنالك أمر مهم في تلك الرسائل. وعند رجوعه أخبره ماكرينوس بعدم وجود أي أخبار مهمة في الرسائل.

كانت تلك الرسالة التي تنذر الإمبراطور قد مرت على جوليا التي أرسلتها حالاً إلى ايديسا إلى الإمبراطور. وأخفاها ماكرينوس الذي أصيب بالذعر لأنه علم أن جوليا سوف تلاحق القضية وسوف لا تهدأ إلا بعد أن تعلم ماذا فعل الإمبراطور بالنسبة لأسماء المتآمرين المذكورين في الرسالة، ولم يكن متأكداً أنه قد أصبح تحت المراقبة وهكذا استبد به التفكير واقتنع أن الاختيار قد وقع الآن بينه وبين حياة الإمبراطور، فإما حياته أو حياة الإمبراطور فقرر ألا يكون هو الضحية.

وكان هنالك في ايديسا جندي مدين له ببعض الفضل وكان هذا الجندي يحقد على الإمبراطور لإنكاره عليه حق الترقي إلى وظيفة سنتوريوم التي كان يستحقها وكان اسم هذا الجندي مارتيالس Martialis. دعا ماكرينوس هذا الجندي سراً وأقنعه بالسير معه في قضيته ومعهما اثنان من الحرس البريتوري اللذين وافقا على قبض مبلغ وإنجاز أي عمل مطلوب منهما. وقد كانت المناسبة التي انتهزوها هي عزم الإمبراطور على الحج إلى كارهي Carrhae وهي مدينة على بعد قرابة أربعين ميلاً وتعرف في التوراة باسم حَرَّان وهي شهيرة بمعبدها ويقال إنها كانت موطن النبي إبراهيم. كان كاراكلا كأمه يحترم جميع الأديان لذلك قرر أن يستحصل على بركة هذا المعبد قبل القيام بحملته ضد فارس، كان الحرس الذي رافقه يشمل مارتياليس Martialis هذا واثنين من التريبيين وهم حماة الشعب. وساعد الحظ المتآمرين إذ أصيب الإمبراطور قبل وصوله المعبد بنوبة من الإسهال فأوقف الحرس ونزل ليقضي حاجته بين الشجيرات، انتظر الجنود وقد أداروا ظهورهم وعندها تسلل مارتياليس منتهزاً الفرصة ومتظاهراً أنه يلبي نداء الإمبراطور ثم عمد إلى طعنه بخنجر بين أضلاعه.

لم يكن باستطاعة كاراكلا الدفاع عن نفسه ولكنه صرخ طالباً النجدة، وحالما ركض الجنود تسلل مارتياليس القاتل هارباً وكان من الممكن نجاته أثناء الفوضى الناتجة لولا أنه ظل حاملاً خنجره. وعندما وصل الحرس رأوه حاملاً الخنجر فتأكدوا أنه هو القاتل فطعنه واحد منهم برمحه فقتله وبينما كان الحرس يجهزون على مارتياليس انتهز المتآمران الآخران الفرصة وركضا إلى البقعة التي ارتمى فيها الإمبراطور وأجهزا عليه.

وبعدها ظهر ماكرينوس نفسه فبدأ يصرخ صراخ الرعب والفزع والأسى والأسف رافعاً جثة الإمبراطور بين ذراعيه لفحصها. وقد شعر بالارتياح التام عندما وجد أن الإمبراطور قد فارق الحياة. لقد مات كاراكلا في 8 نيسان عام 217 وعمره تسعة وعشرون عاماً.

حزن الجنود لموته حزناً شديداً وناحوا عليه؛ فقد أحبوه لكرمه ولمعاملته الحسنة وتواضعه معهم ومساهمته في أعمالهم في السراء والضراء، وقد حاول ماكرينوس التخفيف عن الجنود ومشاركتهم حزنهم، وترأس الاحتفال الذي أُحرق

به جثمان الإمبراطور، وأرسلت القارورة التي تحتوي على الرماد إلى جوليا في أنطاكية ومن هناك إلى روما.

لقد هال جوليا تتابع تلك الحوادث المرعبة فقد حزنت ليس لخسارتها ابناً لم تكن تضمر له أي حب، بل لأنها خسرت إمبراطوراً لم يترك له خليفة أو وريثاً سواء بالدم أو بالتبني لاستمرار تلك الأسرة الإمبراطورية، فقد أصبحت كل منجزات زوجها ومنجزاتها مهددة بالفشل الذريع والدمار.

فالخطر الآن يفوق الخطر الذي رافق موت كومودوس، فلم يكن هناك بيرتناكس جديد يستلم مقاليد الأمور ولم يكن هنالك سبتموس سيفيروس ليخلفه. وردت الأخبار من ايديسا أن الجنود يريدون تنصيب أحد عرفاء الحرس البريتوري خليفة له وأن ادفنتوس قد رفض هذا المنصب نظراً لكبر سنه وأن ماكرينوس قد انتُخِب نتيجة لذلك. وقد علمت من التقارير التي أتت من روما أن ماكرينوس مشترك في المؤامرة ضد الإمبراطور وهكذا بدأت تتأكد أن هذا الرجل مسؤول عن قتل ابنها، ولهذا فقد كانت معذورة عندما استبد بها اليأس حين علمت بانتخابه إمبراطوراً. وفي أثناء حزنها ضربت على صدرها وهي علامة تقليدية سائدة في سوريا وفي أجزاء الشرق الأخرى للدلالة على الحزن واليأس، وهذا مما زاد في آلامها السرطانية التي كانت قد هدأت قليلاً ولكنها أثيرت الآن وأصبحت جوليا فاقدة الأمل معذبة.

وبعدها وردت رسالة من ماكرينوس يخاطبها فيها بلقب الأوغسطا ويعطيها الإذن بالاحتفاظ بحرسها البريتوري، وكانت الرسالة مهذبة في فحواها وقد تبينت بسرعة نقاط الضعف في كلماته وذلك دليل على شعوره بالضعف وعدم الأمان ولهذا قررت أن تظل في موقع القوة. تركت الرسالة دون جواب وبدأت تستمزج شعور الجنود في أنطاكية للتأكد من ولائهم لها وبالوقت نفسه أرسلت الرسل لتتعرف على موقف بقية الإمبراطورية وقد أتت التقارير مشجعة لها. فقد كان ماكرينوس غير محبوب في صفوف الجيش ومُحْتَقَراً بسبب مظهره وأصله ومحتده ثم لاتهامه بالضلوع في مؤامرة قتل كاراكلا. وقد كانت معظم أجزاء الإمبراطورية غضبى لاجتراح ذلك العمل الذي سوف يؤدي إلى زوال حالة النظام والاستقرار في الإمبراطورية، وقد كان هنالك إجماع على احترام تلك الأسرة، بفضل جوليا وحكمها الواعي الذي زين المساء الذهبي لعصر الأنطونيين. شعرت جوليا بالارتياح وزال عنها ألم السرطان، وبدأت تعمل بجد للتخلص من ذلك المغتصب. فالأسرة لم تنقرض ما دامت جوليا موجودة فماذا يهم إذا حكمت الدولة إمبراطورة، ألم تحكم سميراميس العظيمة بابل التي ازدهرت تحت حكم تلك الملكة؟ لقد أصاب ماكرينوس الذعر عندما لم يستلم جواباً لرسالته وفسر سكوتها على أنه عمل من أعمال التحدي، لذلك تأكد أن لا سلامة له إذا ظلت هي حرة طليقة، فقرر استعمال القوة بدلاً من الدبلوماسية فأرسل شرذمة من جنوده لإلقاء القبض عليها وإرجاعها إلى حمص مدينتها الأصلية لتعيش هناك بشكل إجباري مع أختها ماسيا Masea وقد فوجئت بوصول الجنود إذ لم تكن استعداداتها قد اكتملت ولم يتم تنظيم رجالها للمقاومة وربما

كانت آلامها سبباً في افتقارها إلى مرونة الحركة في الوقت اللازم، ومع ذلك رفضت إطاعة أوامر وقعها ماكرينوس، واحتجبت في غرفتها التي كانت نوافذها تطل على الدروب الظليلة وعلى المياه الرقراقة التي تسقي الحدائق في (دفني) ذلك المنظر الذي يذكرها بتلك الأيام السعيدة عندما كانت تعقد جلسات بلاطها وترأسه بصفتها الأوغسطا وتشرف على المناظرة الشفوية بين الأدباء المتنافسين وتستمع إلى الشعراء وهم ينشدون القصائد.

تردد الضابط المسؤول عن القبض عليها ولم يجرؤ على اقتحام الغرفة أو حملها بالقوة، بل حاصر البيت لمنعها من الهرب حتى تقرر بنفسها ما ستفعله وتريحه من تلك الصعوبات. ولكنها رفضت تناول الطعام والشراب المقدم لها وماتت جوعاً بعد أن اعتراها الضعف والنحول وخيبة الأمل والقلب الكسير. ماتت وهي في الخامسة والأربعين من العمر.

بعد حرق جثتها نقلت البقايا إلى روما ودفنت هناك ولكن بعد أن استلمت أختها ماسيا السلطة أصدرت الأوامر بنبش قبر أختها جوليا، ونُقِلَت القارورة التي تحمل رماد جسمها وكذلك القارورة التي تحمل رماد جسم ولدها جيتا لتدفن في المقبرة الإمبراطورية للأنطونيين، وهكذا رقدت جوليا جنباً إلى جنب مع ولدها الحبيب جيتا.

obeikandl.com